بارقٌ يلمع فى جنح الليالى!

لا أتأمل أكوام آلاف الأوراق، التى تمثلها هذه المجموعة من الحوارات، والتى أجريتها على شاطئ المحيط فى بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية، عبر سنوات ثمانٍ، بوصفها محض ذكريات عبرت أفق خيالى..

ولكننى أنظر إليها على أنها جزء من مشروع حياة، راكمت فيه ـ عبر الحوار ـ عددا لا بأس به من الملفات المهمة، التى رأيت أنها يجب أن تكون بعض شواغل الناس، فى زمن الالتهاء بالخبز والسيرك، أو فلنقل الخبز والديش!

فمنذ عقود ثلاثة، وأنا أعتنق عقيدة مهنية، تؤمن بشكل قاطع وعميق، بأن الفكر الإنسانى والإبداع بجميع مستوياته وساحاته، لا يمكن أن يتخلق أو يتحقق واقعا مستقرا على الأرض، وعبر عملية تغيير جسور، إلا بأن يكون قطبا فى جدل أو طرفا فى حوار.

. . . . . .

السمة الوحيدة الثابتة فى حياة البشر هى التغيير، ولكن ندرة من الناس هى التى تفهم طبيعة التغيير على نحو صحيح.

التغيير ـ كما فهمته ـ هو السعى لإخراج الناس من غربتهم، سواء كانت غربة ثقافية ناجمة عن التفاوت الثقافى والفكرى، أو كانت غربة اجتماعية كغربة الفقر فى الوطن، أو كانت غربة فى الغربة لهؤلاء القلقين المهمومين بالبحث فى أفكار فلسفية جبارة وعملاقة، والذين يرتحلون من الحاضر إلى المستقبل، أو يهاجرون من الحالى إلى الماضى، كعملية دينامية لا يغنى أحد أرقامها عن الآخر، وإلا يصبح استبدال الماضى أو المستقبل بالحاضر، عملية معلقة من شواشيها أو جذورها فى الهواء، تتحدث عن التغيير طوال الوقت من دون صلة بالواقع الذى ينبغى تغييره.. من دون علاقة بالناس الذين سيكونون أداة لذلك التغيير!!

وأعرف أن إقصاء الناس عن أن يشاركوا فى العمليات الكبرى التى شهدتها مجتمعاتنا على المستويات السياسية أو الثقافية أو الاجتماعية أو الإعلامية، قد أصبح وكأنه من لزوميات هذه العمليات الكبرى، يجرى التخطيط له، ويجرى إقراره، ثم فرضه من قِبل الجماعة الثقافية، مع سبق الإصرار والترصد.

والواقع أن هذا الإقصاء لم يُنتج سوى بناءات نظرية مشوهة وناقصة تفتقر إلى تلك الحيوية الدافقة، التى يحققها دخول الناس كرقم من أرقام معادلات هذه البُنى، كما لم يفرز هذا الإقصاء غير مزيد من الغربة يعيش فيها الناس، بل وتعيش فيهم!

وهذا الجزء من «حوارات التغريبتين» ـ إذا جاز التعبير ـ رأيت أن يكون عنوانه: (على ضفاف الثقافة)، ولم أطمح ـ بعد ـ فى أن يكون عبورا إلى هذه الثقافة أو وصولا لها، إلا بمقدار تأكدى من مشاركة حقيقية من الناس تتفسر أمامنا، ونلمسها بأيدينا، مدركين ومتأكدين أن الثقافة هى لفظ كلى مرادف للحضارة، يتضمن فيما يتضمن العمل المهنى والجهد البدنى لهؤلاء الناس، ومن ثم فإن دخولهم إلى ساحة العمليات الفكرية الكبرى فى مجتمعنا، يعد دخولا لطرف أصيل، بل ربما هو دخول للطرف الأصيل (مع التعريف بالألف واللام).

هذا الجزء من «حوارات التغريبتين» يتعرض ـ واقعيا وفعليا ـ لما يمكن تسميته مشكلة ثقافية عربية، ويحاول أن يخترق ذلك السور الذى يفصل الناس عن الدخول إلى دقائق وحقائق هذه المشكلة، ويحاول أن يغافل ديدابانات العزلة، التى ترغب فى فصل وحجب وحصار الناس، والذين سيظل السور مخفورا بهم، إلى حين لحظة نتمكن فيها من أن يدخل أحدنا لهؤلاء الناس، ويتحدث إليهم، ويلاغيهم، ويستنطقهم، ويسهم فى إطلاقهم طاقة تغيير كبرى على قدر مقام البلد والشعب العبقريين!

العمل الاجتماعى، الاهتمام بالطفولة، الوضع الاقتصادى، مواجهة التطرف، إشكالية المعاصرة، هجرة الزمان والمكان، الشاعر والسلطان، النيل والأرض..

هذه كلها بعض زوايا الملف الذى نطرحه الآن تحت عنوان: «على ضفاف الثقافة»، وهى جزء من محاولة تجرب وضع الحوار العام على مسار التعرض لمفهوم (المشكلة الثقافية) بأكثر منه تساوقا مع السائد، من وضع هذا الحوار العام على مسار التعرض لمفهوم (منطق أيديولوچى).

إذ إن المنطق الأيديولوچى ـ بطبيعته وبحكم التعريف ـ يُسهِل سيادة فكر وثقافة الخندقة، والتقوقع، أو ـ فى أحسن الفروض ـ ينزع إلى الاستقطاب والمواجهة الأيديولوچيين بأكثر من الحوار والممازجة الإنسانيين.

وقد اعتدنا ـ مع كثير الأسف ـ أن تكون حواراتنا ـ ولسنوات طويلة ـ ذات طابع أيديولوچى، قائمة على التناطح بالأفكار بأكثر منها حوارات حول مشاكل ثقافية، تحاول أن تحدد متوسطا حسابيا لرؤى وآراء الناس حولها، أو ـ بعبارة أخرى ـ تحدد ساحات اللقاء والالتقاء القومى العام. . وأظن أن هذا هو ما تتطلبه مرحلة النمو الاقتصادى الاجتماعى التى نعيش فيها، بل وما يفرضه نزوع الناس ومزاجهم السائد.

إلى ذلك، فإن الحوار ـ بالمفهوم الذى يحاول مشروعى السياسى والثقافى والمهنى أن يتبناه ـ يمكن أن يكون سكة لتجاوز أزمة أخرى غير الأيديولوچيا، ألا وهى التكنولوچيا.

فنحن نعيش فى غمار ثورة الإليكترونيات أو الثورة الصناعية الثالثة، وقد أصبحت الانفوميديا (المعلومات ووسائل الإعلام) هى السيد الجديد لكوكبنا، يعيد تشكيله غير آبه بأفكار ـ غدت بالية ـ عن السيادة السياسية أو الحمائية الاقتصادية والثقافية والفكرية.

غير أن هذه التكنولوچيا، بدلا من أن تساعد الإنسان ـ وبالذات فى مثل مجتمعاتنا ـ على إعادة اكتشاف نفسه، دفعته إلى أحد طريقين موحشين، فإما أن يعيد إنتاج أفكار الآخر فى حالة ببغاوية تعتمد منطق المحاكاة وتغتال ملكة الابتكار، وإما أن يخاصم هذا الآخر، ويبدأ فى التعلق بأستار أوهام عن

الماضى، وعن ضرورة سحب التراث والأصالة فى مواجهة غير ضرورية، وغير منطقية مع المعاصرة.

وبين الطريقين الموحشين، نعيش حالة من حالات السيولة الثقافية والفوضى، دفعت إلى ساحات الضوء ببعض الجهلة وشذاذ الآفاق، الذين يبحث كل منهم عن شخصية أو دور، ووجد أن أسهل الطرق إليه هو (التطرف) وصولا إلى نقطة الحد الأقصى فى أحد الطريقين: (المحاكاة) أو (المخاصمة)!!.. وعلى شاشات الفضائيات العربية كان مسرح سطوع، ثم تجلى هذه الظاهرة، التى توشك أن تصبح ثقافة جديدة وبديلة.

ومن هنا، كان أحد هموم هذه المجموعة من الحوارات هو محاولة فهم الفوضى الثقافية الحادثة، كخطوة أولى للسيطرة عليها، ومحاولة رصد التغيير الديناميكى الذى يحدث فى وحدات الحوار النمطية ذاتها، وذلك فى غمار التسارع الشديد الذى تفرضه ثورة الاتصال والمعلومات على إيقاع هذا التغيير.

وأحد الجوانب المهم رصدها فى الوحدات النمطية للحوار، هو عمليات الارتحال الفكرى التى يقوم بها المفكرون والمثقفون، وهم الطرف الآخر فى الحوار ذاته على نطاق واسع، وهى العمليات التى مهدت لها وسهلتها سيادة المنطق (الأيديولوچى) بدلا من (الإنسانى) على عملية الحوار نفسها.

فطرح القضايا بعيدا عن الناس.. الجماهير، جعل من اليسير التحرك المصلحى الانتهازى أو المتطور العياش، من جانب بعض مثقفى هذا الزمان، من دون تقديم مبررات أو مسوغات لهذا الحراك من مربع فكرى إلى مربع فكرى آخر، وبشكل يُصَعِّب من إجراء أى حوار مع أحدهم، إذ سينطلق هذا الحوار من أرضية ما هو معلوم عن هوية أحدهم السياسية والفكرية، والتى قد تكون تغيرت، وربما إلى النقيض.

فتكنولوچيا المعلومات، أصبحت على شفا خلق ثقافة جديدة كونية، ينزع بعض المثقفين العرب والمصريين إلى دخول بوابتها، نتيجة هزيمة عقائدهم

السياسية والفكرية السابقة بشكل منكر، أو رغبة فى الالتحاق بقطار الزمن الجديد، الذى لا يستطيع أحد أن يتنبأ بمحطته القادمة أو وجهته النهائية.

وفى الحالتين، فإن المثقف العربى الأيديولوچى يستغل جهل الناس بمنطقة انتمائه الأولى، ومنطقة ارتباطه الثانية، ليرتحل بينهما، غير مطالب بالقيام بدوره الواجب والصعب فى الشرح والتفسير، وخلق تيار وعى مؤيد فى الوسط الثقافى المتخلف والحائر الذى يعيش فى قلبه.

ومن هنا، فقد شكل هذا الوضع - بجملته وتفصيله - إحدى إشكاليات مشروعى للحوار، ووضع على أجندته تكليفا آخر، بتقصى حالات التغيير الديناميكى الذى يحدث فى وحدات الحوار النمطية ذاتها.

ثم كانت المشكلة الثالثة هى أن الحوار كنشاط إنسانى، يخضع لنفس القياسات التى تخضع لها أية عملية إبداعية أخرى.

فعلى المستوى التاريخى كانت معظم الإبداعات، وفى شتى المجالات فى الدولة العربية، تتم فى الأطراف بأكثر مما تتجلى فى المركز، إذ كان البعد عن القبضة المركزية الاجتماعية والثقافية والسياسية التى يمثلها المركز، مؤثرا من دون شك على طريقة طرح موضوعات الحوار، بحيث علت سقوفها، وترامت أطرافها، من دون حسابات أو تحسبات!!

ومن ثم، فإن سؤالا يجب أن يثور هنا حول مدى تمثيل هذه الآراء، التى أبدعتها حالة الحوار التى دارت بينى وبينهم فى الأطراف لنوع ومستوى الوضع الثقافى فى المركز.. بعبارة أخرى، هل كان الحوار الحر على شاطئ المحيط، يمثل انعكاسا لصورة الحوار فى مجتمعنا الأم؟!

والرد واضح، وهو أن أداة الضبط - هنا - كانت نشر هذه المجموعة من الحوارات فى «الأهرام» العتيدة، وهى الضامن - والحال كذلك - أن يكون هذا الإبداع الحر فى «إطار».

. . . . . .

هكذا كان إحساسى بهذه المجموعة من «حوارات التغريبتين»، وهكذا كان تصورى لما تمثله كجزء من مشروع حياة، ومشروع إبداع، آنسنى وواسانى فى الغربة، وألقى فى قلبى وعقلى بأفكار كانت تبدو بارقا يلمع فى جنح الليالى، أخذ بيدى إلى عوالم ما كنت أظن أننى سأخبرها يوما.

وهكذا لم تك أبدا نظرتى لأكوام آلاف الأوراق التى تمثلها هذه المجموعة من الحوارات، والتى أجريتها على شاطئ المحيط فى بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية عبر سنوات ثمانٍ.. محض ذكريات عبرت أفق خيالى!!

د. عمرو عبد السميع

القاهرة ـ مصر الجديدة
٢٤ من مايو ٢٠٠٢